

دور التنغيم في أسلوب الشرط

أ. عفاف الطاهر شلفوم

قسم اللغة العربية- كلية الآداب الزاوية

جامعة الزاوية

مقدمة:

يعد التنغيم ظاهرة صوتية فوق التركيبية لا تخلو منه لغة من اللغات الحية، واللغة المنطوقة التي تتسم بتنوع الدرجات الصوتية - كما يتبادر إلى أسماعنا- تعدّ الوسيلة الأنجع للتواصل الفكري بين البشر تفوق كل وسائل الاتصال الأخرى، ما جعلني أفكر في مدى الدور الذي تلعبه هذه الظاهرة في صناعة المعاني والدلالات بتنوع ارتفاع درجات الصوت وانخفاضه من خلال دراسة (دور التنغيم في وظائف أسلوب الشرط)، دراسة صوتية أهدف من خلالها معرفة هل للتنغيم دور في النظرية التوليدية التي طالما استحوذ عليها درس النحوي والصرفي؟ ومعرفة دوره في تجسيد المعاني والدلالات وتوجيهها من خلال أساليب التراكيب النحوية

عموماً، ودوره في تجسيد علاقة المشاركة صوتياً خصوصاً، وتطبيق النتائج على بعض النصوص العربية لأساليب الشرط. وإثراء الدراسات الصوتية المقلّة عموماً.

تكوّنت هذه الدراسة من مقدّمة وستّة مباحث، أمّا الأوّل فقد تضمّن أسلوب الشرط في الدرس الصوتي، وأمّا الثاني فقد تضمّن اقتران جواب الشرط بالفاء، وأمّا الثالث فقد تضمّن الحذف في أسلوب الشرط، وأمّا الرابع فقد تضمّن قضايا شرطية، وأمّا الخامس فقد تضمّن خروج الشرط عن مقتضاه الظاهر، وأمّا السادس فقد تضمّن الشواهد التطبيقية، وأردفت هذه الدراسة بأهمّ النتائج التي توصلت إليها وفهرس المصادر والمراجع.

وقبل التفصيل في هذه المباحث ينبغي تعريف التنغيم وأسلوب الشرط، أمّا التنغيم فقد عرفه تمام حسّان: "بأنه ارتفاع الصوت وانخفاضه(*) أثناء الكلام وربّما كان له وظيفة نحويّة"⁽¹⁾. وعرفه أحمد مختار عمر بأنّه: "تتابعات مطّردة من مختلف أنواع الدرجات الصوتيّة على جملة كاملة أو أجزاء متتابعة. وهو وصف للجمل وأجزاء الجمل، وليس للكلمات المختلفة المنعزلة"⁽²⁾. وأمّا أسلوب الشرط: فهو: "تعليق جملة بجملة تكون الأولى سبباً والثانية مسبباً"⁽³⁾.

وهو من حيث النوع، حروف وأسماء، ومن حيث الوظيفة الإعرابية جازمة وغير جازمة.

المبحث الأوّل - الشرط في الدرس الصوتي:

الشرط هو أسلوب مركّب من كيانين تركيبيين مستقلّين في الأساس، تربطهما علاقة مشاركة؛ وبسبب هذه العلاقة جعل التركيبين تتغير صورتها الصوتية عن ذي قبل، على الرغم من أنّهما جملتان خبريتان، كان لهما تنغيم الجمل الخبرية المستقلة، أما وقد أضفي عليهما تلوين صوتي مخالف فقد ذهب بأذهاننا إلى دلالة أخرى ومراد لغوي آخر.

نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [إبراهيم 19]، (إن) أداة الشرط، (يشأ) فعل الشرط، وهو جملة فاعله مقدر. (يذهبكم) جملة أخرى، من فعل وفاعله مستتر أيضاً. إذاً هما جملتان، إذا ما فككناهما نقول: (يشاء الله عقابكم) والثانية (يذهبكم الله)، نلاحظ أن كلا الجملتين ينطقان بصورة تنغيمية هابطة ثم سكتة طويلة تعقب كل منهما تنبي عن استقلالية إحداهما عن الأخرى، وتمام معناها بعيدة عن الأخرى.

أما وقد اجتمعت الجملتان في أسلوب واحد بالربط بينهما في علاقة مشارطة، فإن الصورة التنغيمية التي تدلنا على هذه العلاقة تختلف عن الصورة السابقة؛ إذ تصحب الجملة الأولى (إن يشأ) نغمة صاعدة تنبي عن تعلق التركيب بغيره، وتشعرنا بالانتظار لما تحصل به الفائدة، والأداة تقترن بفعالها ولا تنفك عنها ككتلة صوتية واحدة من دون الفصل بينهما بسكتة⁽⁴⁾، هذه السكتة من المقرر أن تعقب الجملة الأولى، أي جملة الشرط من دون المبالغة في تطويلها. والجملة الثانية (يذهبكم) تصحبها نغمة هابطة تدلنا على الفور على تمام المعنى وانتهاء المشاركة. وهذا ينطبق على أدوات الشرط غير الجازمة أيضاً، نحو (لولا الرسل لخسرت البشرية).

هناك أسماء وُضعت في الأصل للاستفهام عن المكان أو الزمان، ثم وُظفت للدلالة على الشرط، نحو: (أين يوجد الله؟)، (أنى يدركنا الموت؟)، (متى تسافر؟)، (أيان يتوب الله علينا؟)، (كيف أعمل؟)، (أي بلد تسافر؟)، (من يعمل خيراً؟)، (ما تصنع؟)، وتكون (من، ما) بمعنى الموصولية، نحو (جاء من يعمل خيراً)، (ساء ما تفعلون). كذلك تضمّنت (حيث) الظرفية معنى الشرط، وهي في الأصل للظرفية المكانية، نحو (جلست حيث الشجرة). التنغيم الذي يصاحب الجمل الاستفهامية السابقة يكون صاعداً بالأداة، هذا الصعود ينبي بانتظار الجواب، مع إمكانية الفصل بين الأداة والمستفهم عنه بسكتة خفيفة، وتنتهي الجملة بنغمة هابطة. وباقي الجمل هي

جمل خبرية تصحبها نغمة مستوية. وإذا تحوّلت هذه الأدوات من مدلولها الأصلي إلى معنى الشرطية، فإنه حتماً يرافق هذا تحويلٌ في الصورة التنغيمية، كما في التالي:

- أين نتجّه، يوجد الله، أو أينما نتجّه، يوجد الله.
- أئى تكونوا، يدرككم الموت.
- متى تتجج، تسافر.
- أيان نتب، يتب الله علينا.
- كيفما تعمل الآلة، نعمل.
- أي بلد تسافر، أسافر.
- من يعمل خيراً، يلقى جزاءه.
- ما تصنع، تجده.
- حيثما تكن، أكن.
- مهما تكذب، فلن نصدّقك.

تتكون الجمل السابقة من ثلاثة أطراف معنية، هي الأداة وجملة الشرط وجملة جوابه. تركيب يصلح أن يكون جواباً للجمل الاستفهامية التي سبقتها. وإذا تمعنا فيها بقراءتها بشكل متوالٍ نلمس أنها اجتمعت في تنسيق تركيبى محدد، يصحبه تصورٌ تنغيمي موحّد. إذ تغيرت الصورة التنغيمية لتلك الجمل التي تنصدرها أسماء الاستفهام من محض الاستفهام أو الظرفية، إلى صورة تنغيمية أخرى، إذ تبدأ جملة الشرط ملتصقة مع اسمها في كتلة صوتية واحدة من دون سكتة بينهما بنغمة عادية وتنتهي بنغمة صاعدة؛ لعدم تمام معناها. ثمّ تعقبها سكتة صغيرة تفصل بين الجملتين، تمهيداً لتغيير النغمة إلى هابطة تكسو جواب الشرط، بعد ذلك الصعود، تدلّ على تمام الفائدة، وانتهاء الأسلوب.

المبحث الثاني - اقتران جواب الشرط بالفاء:

عند قراءة جملة (من ستر مؤمناً، ستره الله) أو سماعها من عارف متمكن، نجد إلى جانب النغمة الصاعدة لجملة الشرط سكتة تعقبها، وتباطؤ في إرداف جملة جواب الشرط. وعند قراءة (من ستر مؤمناً، فإِنَّه ستره) فإنه يتبادر إلى أسماعنا إمكانية تلاشي تلك السكتة، وتسارع الفاء مع لصيقها لملء فراغها⁽⁵⁾؛ ولأنهما جملتان مستقلتان في أسلوب واحد يجب أن يراعى عنصر التنغيم في الربط بين أجزائه في إبراز علاقة المشاركة التي يقوم على أساسها الأسلوب؛ حتى لا يلتبس المعنى في الجملة الأولى، ويتهاون في أمر السكتة قليلاً؛ لوجود القرينة الرابطة بين أجزاء الأسلوب المتمثلة في الفاء الواقعة في الجواب. فالأصل في الجواب أن يصلح لأن يكون فعلاً للشرط، فيكون الكلام على وتيرة واحدة متناسقة، توحى بالترابط بين أوصال أسلوب الشرط. وعندما جاء الجواب على غير الأصل، جيء بالفاء خشية بعثرة الجمل، وفقد الرابط بينها في غياب الصورة التنغيمية التي تأسلت بالضغط على الفاء ولصيقها، فمثلاً إذا تجاوزت جملتان نحو (من يدرس، سوف ينجح)، قد يلتبس الأمر لعدم وجود علاقة ظاهرة بين التركيبين، فيأخذها كلٌّ منا على هواه، بأن تكون الأولى للاستفهام مثلاً، فيغلب عليها نغمة الاستفهام (من يدرس؟) و(سوف ينجح) تكون جملة مستقلة عن الأولى. ولو قدر التنغيم حق قدره في هذا الموضع، في الربط بين أجزائه، لما دعت الحاجة إلى الفاء. وعلى الرغم من وجود هذا الرابط اللفظي المتمثل في الفاء، فإن الربط يُعزّز بتنغيم واضح بالضغط على الفاء ولصيقها.

المبحث الثالث - الحذف في أسلوب الشرط:

الحذف في أسلوب الشرط أو التقديم والتأخير بين أركانه على مذهب الكوفيين في نحو (النصر قريب إن تصبروا)، في هذه الجملة ذهب البصريون إلى عدم الاعتراف بجواب الشرط

المتقدم على فعله. وهو ما لا يُعدّ مقبولاً عند الكوفيين⁽⁶⁾؛ إذ لا حاجة دلالية تدفعهم إلى البحث عما هو موجود، أو تقدير شيء ما يمكن لما هو ظاهر أن يغني عنه. الأمر الذي يُعدّ مقبولاً من وجهة نظر منطقيّة.

لكنّ البصريين يبدو أنّ لهم نظرة صوتية غائبة عن الكثيرين، تعلل ما ذهبوا إليه؛ فجملة (إن تصبروا، فالنصر قريب) أسلوب شرط له صورته التنغيمية الموزعة على أركانه، والتي ارتبطت به، ولا يتأتى من دونها، كما أبنا فيما سبق. وإذا أعدنا ترتيب أركان الأسلوب، بأن يتقدّم الجواب على الشرط وأداته، (النصر قريب إن تصبروا)، نجد أنّ هذا التركيب اختلفت صورته التنغيمية عن التركيب السابق؛ إذ في الجملة الأولى إثارة المستمع وإيحائه بإقباله على نتيجة المشاركة، وإبقاء الذهن في حالة انتظار. كل هذا توحيه إلينا النغمة الصاعدة لجملة الشرط؛ بسبب ذلك فإنّ الناطق يسعى إلى إبراز ما يتوق المستمع إلى سماعه لأهميته في التركيب، بالضغط على جواب الشرط، والتباطؤ فيه. أما وقد تقدّم الجواب على الشرط (النصر قريب إن تصبروا)، فإنّ الأسلوب سيفقد بعض ما يعنيه الشرط من عنصر الإثارة والإيحاء، ويترتب على هذا التقديم، عدم الحاجة للضغط على الجواب المتقدم. ولأنّ المنتظر إقباله قد تقدّم فلا حاجة لأن تصحب جملة الشرط نغمة صاعدة التي توحى بالانتظار. وعلى هذا فالنغمة المصاحبة للشرط وجوابه المتقدم مستوية عادية تخلو من عنصر الإثارة، مع الضغط على أداة الشرط وإبرازها⁽⁷⁾؛ لتضفي على التركيب شيء من معنى الشرطية. ولعلّ هذا ما دفع البصريين إلى تقدير جواب محذوف للشرط.

وقد يحدث أن يُحذف فعل الشرط، وهذا كثير، نحو (كن مع الجماعة وإلا تضعف)، أي: (إن لم تكن مع الجماعة، تضعف). فعل الشرط في التركيب الأول محذوف يفسره المذكور قبل الأداة. وعندما نقارن بين نغمتي الجملتين نجد اختلافاً بئناً؛ إذ نلاحظ في جملة المحذوف أنّ

ضغطاً زائداً على الأداة لإبرازها، وهو إبراز مهم إذ يعول عليه في معنى الشرط، وتنتهي هذه الأداة بنغمة صاعدة كانت قبلاً لجملة الشرط، تدلّ على ثلاثة أشياء، الأول تدل على فعل الشرط المحذوف. والثاني تدلّ على عدم تمام المعنى المنتظر في الجواب. والثالث تدلّ على وجود إنذار ما. وتعقب هذه النغمة سكتة تنبي عن هذا المحذوف، وتؤكد الإنذار بما هو آت من تهديد وعقاب نشعر به فوراً من تلك السكتة وذلك الصعود.

المبحث الرابع - قضايا شرطية:

قد يتداخل الاستفهام في أسلوب الشرط، فيتصدر الجواب، نحو (إن زرتك فهل تزرنني؟) في هذا التركيب تختلف صورته التنغيمية عن قولنا (إن تزرنني أزرك)، إذ في الجملة الأولى تكون جملة الشرط منتهية بنغمة هابطة مع الضغط على فعل الشرط، على عكس ما هو في الجملة الثانية. والجواب في الجملة الأولى يكون بنغمة صاعدة تدلّ على الاستفهام، وعدم تمام المعنى إلا بالإجابة عليه. على عكس الجواب الشرطي في الجملة الثانية الذي ينتهي بنغمة هابطة تدلّ على تمام المعنى.

وقد يتصدر الجواب بحرف تحضيضي، نحو (إن ساعدتك، فهلاً شكرتني)، يتم الضغط في هذا التركيب على حرف التحضيض وإبرازه؛ للحث على ما بعده، وجملة الجواب إما أن تكون هابطة لتمام المعنى. وإما أن يكون فيها صعود ينبي عن المبالغة في التحضيض والانتظار؛ لمعرفة نتيجته من المخاطب.

وقد يتصدر الجواب إذا الفجائية، نحو (إن يصبهم سوء، فإذا هم يقنطون) فتكون النغمة المصاحبة فيها إثارة عنصر المفاجأة.

من قضايا أسلوب الشرط أن بعض الأدوات توجد فسحة نطقية⁽⁸⁾ بين الشرط وجوابه، كما في (لو، لما)، نحو، (لو أن لنا كرة نعود إلى الحياة الدنيا فنعمل صالحاً لما لبثنا في العذاب المهين)، في هذا المثال فسحة نطقية بين الشرط وجوابه، وهذا يتناسب مع التمني. ونحو (لما) سمع نفر من الجن قرأنا ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم آمنوا به) وفيه كذلك فسحة نطقية بين الشرط وجوابه يتناسب مع القصة والحكاية. وتتقلص هذه الفسحة مع (لولا) غالباً، نحو (لولا الماء لانتهدت الحياة، الفسحة النطقية التي في (لو، لما) تجعل المستمع يولي تركيبهما تركيزاً أكثر؛ تربصاً بالجواب، وهو ما لا يكون في (لولا)، إذ يكون جوابها لصيقاً بشرطها غالباً.

و(لو) اللام للإصاق والواو يفيد الجمع، نستشف ذلك من خلال صورتها النطقية فاللام يؤتى به عند التصاقه بالثة ولا ينفك عنها، والواو عند جمع الشفتين وضمهما، نحو (لو جئنتي لأكرمك) نرى ههنا الأداة جمعت السبب مع المسبب في علاقة تلازمية عدمية، إذ انعدم المسبب وهو الإكرام لانعدام السبب وهو المجيء. كما أنها تلتزم بالزمن الماضي وتلتصق به، فلا يجوز أن نقول: (لو جئنتي غدا لأكرمك)، بل نقول: (إن جئنتي غدا لأكرمك).

ومن قضايا الشرط، اسم الشرط (مهما) قيل أنها تتكون من (مه) التي للزجر والنهي، اقترنت بها (ما) لتدل على الشرط؛ لذا فإنها أكثر ما تستخدم في معنى الزجر والنهي، بالإضافة إلى أن فيها معنى التكثير، فتصاحبها نغمة دالة على ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتُسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف 132] بالضغط على اسم الشرط (مهما). لا يمكن أن يتأتى الأسلوب من دونها.

المبحث الخامس - خروج الشرط عن مقتضاه:

غالبية أدوات الشرط الجازمة وغير الجازمة، ليست خالصة للشرط، بل هي ظروف مكانية أو زمانية أو موصولة، كثيراً ما تخرج عن مقتضى الشرط، وإذا تجردت من معنى الشرطية انسلخ عنها تنغيمة، نحو (نجحت لما درست)، (لولا تتوبون إلى الله)، (نسافر متى تشاء)، (استشهد من قاتل في سبيل الله)، (أكلت كل ما في الصحن)، فالأسماء: (لولا) للحث والتحضيض، (لما) بمعنى حين، و(متى) بمعنى الزمان، و(من) بمعنى الذي، و(كل ما) بمعنى العموم و(ما) اسم موصول. وعلى هذا فإن هذه الجمل اتسمت بتنغيم الجمل الخبرية وهي تراكيب مستقلة من جمل أحادية.

المبحث السادس - شواهد تطبيقية:

1. قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ [البقرة 106]

في الآية الكريمة السابقة، أسلوب مركب من ثلاثة أركان، أداة الشرط (ما)، وجملة الشرط (ننسخ)، وجملة الجواب (نأت). كل التراكيب التي جاءت على هذه الشاكلة، تدل على معنى الشرط، وتتماز بصورة تنغيمية، مفادها التصاق الأداة مع جملة الشرط ككتلة صوتية واحدة، في نغمة صاعدة على المقطع (ها = ص ح ح) في (ننسخها) تنبي عن عدم تمام المعنى، تعقبها سكتة تجعلنا في حالة انتظار المعنى التام. وبعد هذه السكتة مباشرة يجب أن تكون جملة جواب الشرط في نغمة هابطة تدل على تمام المعنى على المقطع (ها = ص ح ح) في (منها) في آخر الجواب؛ ولأن الجواب جاء على الأصل وهو جواز مباشرته الأداة، فإن التناغم الصوتي بين الشرط والجواب (ننسخ، نأت) هو الرابط بينهما الذي يغنينا عن رابط الفاء. وإذا افتقر الأسلوب إلى هذا التناغم الصوتي بسبب مجيء الجواب على غير الأصل، نحو قوله

تعالى: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة 118] لزم في هذه الحالة وجود رابط لفظي يعوض ذلك التناغم المفقود في هذه الآية، فكان الفاء.

2. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة 196]

في هذه الآية الكريمة وردت (من) بمعنى الشرط التصقت بفعلها ككتلة صوتية واحدة في تنغيم صاعد على المقطع (جد = ص ح ص) في (يجد)، ينبى عن عدم تمام المعنى، تعقبه سكتة صغيرة، يستعد السامع لتلقي الجواب المنتظر الذي تصحبه نغمة هابطة تدل على تمامه وذلك على المقطع (تم = ص ح ص) في (رجعتم)، فينصرف السامع من حالة الانتظار إلى حالة الاستقرار، وإراحة البال. هذه الصورة التنغيمية المتكاملة، لا نراها في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة 177]. إذ نلاحظ أن التركيب (مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)، لا تحضره الصورة التنغيمية السابقة، فـ(من) اسم موصول والباقي صلته، وجميعه خبر للناسخ، لذا فالنغمة المصاحبة له هابطة، تدل على تمام المعنى على عكس (من) الأولى التي تأخذ السامع إلى حالة انتظار تمام المعنى.

3. وقال تعالى: ﴿أَيُّمًا الْأَجَلِينَ فَضِيَّتْ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص 28]

(أي) أداة استفهام تكون نغمة الجملة هابطة على المقطع (ت = ص ح) في (فضيئت) تدل على الاستفهام بغير هل والهمزة، ولكن هذه الآية عند تلاوتها ترافقها نغمة صاعدة للفعل (فضيئت) على المقطع (ت = ص ح)، تعقبها جملة بنغمتها الهابطة في نهايتها في قوله (عليّ). هذه الصورة التنغيمية جعلت التركيب يخرج من معنى الاستفهام إلى معنى الشرط، فوردت (أي) هنا على معنى الشرط، وخالفت نغمته إلى ما يدل على الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَيْ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس 18] فهي نغمة تبدأ بصاعدة تصحب الأداة مع الضغط عليها، وتنتهي الجملة بهابطة لتدل على الاستفهام.

4. وقال تعالى: ﴿فَأَيُّهَا تُولُوا فَنَّمَّ وَجَهُ اللَّهِ﴾ [البقرة 115]

(أين) أداة استفهام نغمته تكون هابطة في آخر الجملة (لوا = ص ح ح) في (تولوا)، ولكن هذه الآية يجعلها التنغيم تتماز عن غيرها من التراكيب؛ إذ الجملة الأولى تكون صاعدة، تعقبها نغمة هابطة في الجملة الثانية، من دون فصل بينهما؛ لوجود الفاء الرابط، هذه الصورة التنغيمية جعلت التركيب ينصرف الاستفهام إلى معنى الشرط. وفي قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام 22] التنغيم المصاحب له يكون بنغمة صاعدة تصحب الأداة مع إمكانية الفصل بين (أين) وما بعدها بسكتة، وينتهي التركيب بنغمة هابطة تدل على السؤال بغير هل والهمزة.

5. وقال تعالى: ﴿كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة 64]

التنغيم المجعول لهذه الآية ينبي السامع عن وجود أسلوب شرط، وهو تنغيم صاعد فسكتة فهابط، أشلاء يربط بينها تناغم صوتي يفرضه التركيب الماضي لطرفي الأسلوب (أوقدوا، أطفأها)، أما الصاعدة فتحتوي فعل الشرط (أوقدوا نارا)، وأما الهابطة فتحتوي الجواب (أطفأها الله). وإذا قرأنا قوله تعالى ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم 34] فإن صورة تنغيمية أخرى تفرض نفسها على هذه الآية، فقوله (من كل ما سألتموه) نغمته تكون هابطة تدل على تمام المعنى. ولا يحتاج إلى جملة أخرى لذلك.

6. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾

[البروج 10]

7. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

[البروج 11]

تبدو هاتان الآيتان من سورة البروج على صورة تركيبية واحدة لولا تلك الفاء التي تصدرت شبه الجملة (فلهم) في الآية الأولى، وتجردت منها في الآية الثانية (لهم)، يترتب على هذا أن الصورة التنغيمية في الآية الأولى تختلف عن الآية الثانية؛ إذ تدل الفاء على أن الاسم الموصول المبتدأ (الذين) تضمن معنى الشرط، وعلى هذا فإن الشرط الأول من الأسلوب الكائن في الموصول وصلته، تصحبه نغمة صاعدة تدل على عدم تمام المعنى، وتجعل الذهن في حالة انتظار، تعقبه جملة أخرى مرتبطة بالأولى، هي نتيجة عنها، تصحبها نغمة هابطة على قوله (فلهم) تشير للسامع بانتهاء المعنى، وحصول الفائدة، واستقرار الذهن من حالة الانتظار. وعدم وجود التناغم الصوتي بين الجزاء وجوابه لزم الجواب الفاء؛ للربط بينهما، ودفعاً للبس.

وفي الآية الثانية جردت شبه الجملة (لهم) من الفاء، ما يدل على عدم دخول الجملتين في علاقة مشاركة، بل علاقة إخبارية بين قوله (إن الذين آمنوا...) وبين قوله (لهم جنات...) تصحبها نغمة مستوية تنتهي بالهابطة عند انتهاء الكلام وتمام الخبر.

8. قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة 40]

جُزمت (أوف)؛ لأنها واقعة في جواب الطلب، وهو تركيب قريب من أسلوب الشرط، وجواب الأمر مجزوم مثل جواب ما بعد حروف المجازاة، فهو على تفسير (إن تقفوا أوف بعهدكم)⁽⁹⁾. ومن حيث الصورة التنغيمية فإنهما متماثلان، إذ تصحب الجملة الأولى من التركيب (وأوفوا بعهدي) تنغيم صاعد ينبي عن عدم تمام المعنى، تعقبه سكتة تحفز الذهن على الانتظار، وما أن تأتي جملة الجواب حتى يستريح بال السامع بحصول الفائدة به، والذي يبعث على هذا الشعور وجود التناغم الفعلي بين الأمر وجوابه. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح 15]، إذ جُزمت (نتبعكم) على جواب الأمر، فجرى تنغيم الآية على غرار ما جاء في الآية الأولى. لكن الأمر مخالف في قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام 91] أي (دعهم

في جهلهم وضلالهم⁽¹⁰⁾. فلم يجعله جواباً، ولكنه جعله (كأنهم كانوا يلعبون)، فقال: (ذَرَهُمْ فِي حَالِ لَعِبِهِمْ)⁽¹¹⁾. والصورة التنغيمية مخالفة تماماً للآيتين السابقتين، إذ تكون هذه الآية كتلة صوتية واحدة تصحبها تنغيم يبدأ في صورته المستوية والضغط على فعل الأمر (فذرهم)، وينتهي بتنغيم هابط، يدل على تمام المعنى بفعل الطلب. هذه النقلة بين الدالتين إنما مردّها الصورة التنغيمية التي صرفت التركيب في الآية الأولى من مجرد الطلب إلى دلالة الشرط، ونحو ذلك قال أبو النجم العجلي الراجز⁽¹²⁾: [من الراجز]

يَا نَاقَ سِيرِي عَنقًا فَسِيحًا إِلَى سَلِيمَانَ فَتَسْتَرِيحًا

جعل سير ناقته سبباً لراحته فكأنه قال: (إن تسيري نستريح). وعلى هذا فالتركيب عبارة عن طلب وجوابه. أما الطلب (سيري...) فنغمته صاعدة، تدل على انتظار الجواب، والفاء أغنت عن السكتة المفترض وجودها بعد جملة الطلب. هذه الفاء تلتصق بالجواب ككتلة صوتية واحدة (فستريحا) تنتهي بنغمة هابطة؛ لتمام المعنى.

9. وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء 63]

في هذه الآية الكريمة أسلوب شرط جوابه محذوف يفسره ما قبله⁽¹³⁾. وتنغيم الشرط في مثل هذه الحال يختلف عنه في حال عدم الحذف، وذلك أن الأداة مع فعل الشرط (إن كانوا ينطقون) تصحبها نغمة هابطة ثم وقفة بعدها تدل على تمام المعنى؛ لأن معرفة الجواب كانت مسبقة، إما بالتقدير والتفسير، وإما بالتقديم⁽¹⁴⁾ في قوله (فأسألوهم) فلا حاجة لنغمة صاعدة تكسو جملة الشرط. مع الضغط على أداة الشرط ولصيقها؛ لتضفي على التركيب معنى المشاركة.

10. ومثله قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود 80]

تحتوي هذه الآية الكريمة (لو أن لي...) على أسلوب شرط جوابه محذوف يفسره الحال، أي لعلت بكم⁽¹⁵⁾ النغمة المصاحبة للجملة الشرطية السابقة نغمة سلبية هابطة في نهاية

التركيب، مع مط المقطع (ديب = ص ح ح) في (شديد) تدلّ على أنّ الجواب فيه معنى الأسف والتحسر، وليس معنى المشاركة.

11. وقال شاس بن نهار العبدي⁽¹⁶⁾: [من الطويل]

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكلٍ وإلا فأدركني ولما أمزق

في هذا البيت أسلوب الشرط (وإلا فأدركني...) حُذِفَ منه جملة الشرط. والتقدير (إن لم تكن خير آكل فأدركني). فكان لأداة الشرط تنغيم صاعد مع الضغط عليها، وتعقبها سكتة، كل ذلك ينبني عن فعل الشرط المحذوف، وينبني أيضاً عن عدم تمام المعنى الذي ينتظره السامع حتى جاءت جملة الجواب التي هبطت نغمتها؛ لأنها محل تمام الفائدة. ولولا الفعل المحذوف لما كانت هذه السكتة لوجود الفاء الرابط. هذه الصورة التنغيمية جعلت قوله (إلا) بعيداً عن معنى الاستثناء، وإنما هو تركيب دلّت نغمته على معنى المشاركة.

نتائج الدراسة:

1. يعين التنغيم على إبراز التخيّلات والإصغاء واستمالة النفوس.
2. التنغيم ظاهرة تداولية تعكس الحميمية والدفء بين المجتمعات التنغيمية التي يعينها التنغيم على التواصل الانفعالي في صورة صوتية منطوقة تعجز عن تسجيلها وتحقيقها في كثير من الأحيان اللغة المكتوبة.
3. فالتنغيم على هذا يعدّ من أحد أهم عوامل النظرية التوليدية وعناصرها؛ إذ يحوّل الجمل التوليدية إلى دلالات ومعان أخرى، فهو يجعل الخبر شرطاً والشرط قسماً وتمنياً، ويجعل الظرف والاستفهام شرطاً ويجعل الشرط ظرفاً واستفهاماً، وغير ذلك من الجمل السطحية التحويلية.

هوامش البحث:

القرآن الكريم نسخة إلكترونية برواية حفص.

(* الصحيح (في أثناء) .

- (1) مناهج البحث في اللغة، تمام حسّان، دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، 1986م: 198.
- (2) دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة - مصر، 1997م: 229.
- (3) توضيح المقاصد على ألفية ابن مالك، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي، شر، تح: عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، 1428هـ - 2008م، 3: 1274.
- (4) ينظر من وظائف الصوت اللغوي، أحمد كشك، دار غريب، القاهرة - مصر، ط: 1، 2007م: 66.
- (5) ينظر من وظائف الصوت اللغوي: 66.
- (6) ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، 987م، المسألة: 87، 2: 623.
- (7) ينظر من وظائف الصوت اللغوي: 68.
- (8) ينظر من وظائف الصوت اللغوي: 71.
- (9) ينظر معاني الأخفش: 62.
- (10) ينظر تفسير ابن كثير، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفاروق، عمّان - الأردن، ط: 1، 2008م، 3: 1208.
- (11) ينظر معاني القرآن، أبو الحسن، سعيد بن مسعدة البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، تق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 2002م: 62.

- (12) ينظر للمع في العربية، أبو الفتح عثمان ابن جني، تح: حامد المؤمن، عالم الكتب - مكتبة النهضة العربية، بيروت - لبنان، ط: 1، 1985م، 188. والكتاب، 3: 35، الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1985م، 2: 191.
- (13) ينظر المجتبى من مشكل إعراب القرآن، أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة - السعودية، 1426هـ: 726.
- (14) ينظر تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة - مصر، ط: 1: 226.
- (15) ينظر تفسير الجلالين: 296.
- (16) ينظر لباب الآداب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، تح: أحمد حسن لبيح، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - ط: 1، 1997م، ص: 124. والمزهر في علوم اللغة، 2: 435، 436.